قراءة في مخطوط

العلاّمة الشّيخ بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني

" تفسير الفاتحة"

أوسالم محمد نزير*

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على رسول الله وبعد :

فإنّ البحث يُطْلعنا بين الفينة والفينة على تراث زاخر في هذه الدّيار المغربية، لعلماء نبغوا في عالم الفقه، واللّغة، والتّفسير، وكثير من مجالات الفكر، والمنطق، ثمّ سطّروا بأناملهم كتبا ورسائل تشهد لهم بطول الباع في العلم، وسعة الاطلاع، وحسن الفهم، وذكاء القريحة، حتّى إنّ أحدهم لا يكتفي بفن واحد يخوض فيه، بل يجول هنا وهناك ليأخذ من كلّ فن بطرَف، فيبُرِّز في المنقول والمعقول،والفروع والأصول،وفي علميّ الوسائل والمقاصد .

فمن هؤلاء العلماء الأفذاذ محمّد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني، الّذي شهدت له مناظراته ورسائله وكتبه بسعة الاطلاع، إلى جانب ما أوتيه من شجاعة في إبداء الرّأي، والصّدع بالحق، ومقارعة الأعداء، واستشارة أهل العلم، ونصيحة

* كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

أصحاب الملك والسلطان، وليس ذلك إلا لغيرة دينية جُبل عليها، كانت تدفعه إلى إصلاح الأوضاع الفاسدة بلسانه وقلمه تارة، وبسيفه ويده تارة أخرى.

وقبل أن أعرّف بالمخطوط وطريقة التّأليف فيه، سأعرّج على شيء من حياة عالمنا، أُوجز فيه ملامح شخصيته العلميّة والإصلاحية، التي أثّرت على الحياة الفكرية والسّياسية في عصره، يذكّرنا بما للعلماء من التّأثير فيما حولهم، حينما يستقلّون بآرائهم بعيدا عن أهواء العامّة، وسطوة السلطان.

محمد بن عبد الكريم المغيلي:

ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي كانت تقطن بتلمسان وضواحيها ولا تزال[1]، وكذلك في غيرها كما تشير إلى ذلك تسمية بعض البَلْدات بتيارت وتميمون.

أمّا عن تاريخ ولادته فلا يجزم به كثير من الباحثين، كالمرحوم الدّكتور يحي بوعزيز الّذي لم يَعْدُ حدّ التّقريب في تقدير مولده في مطلع القرنين التّاسع الهجري والخامس عشر الميلادي[2]، في حين يرى غيره أنّ أرجح الرّوايات ما ذكره العلاّمة ابن القاضي في **تاريخ الوفيات**، إذ حدّد مولده بتاريخ 820 هـ.[3]

أمّا وفاته فكانت ببلاد توات، بقصر بوعلي التّابع لبلدية زاوية كنتة حاليا، وذلك سنة 909هـ باتّفاق، وقبره لا يزال قائما إلى يومنا هذا .

تلقّى العلم كسائر أقرانه على طريقة ذلك العصر، حيث حفظ القرآن، والمتون العلميّة في الفقه والنّحو وغير ذلك ،ورحل لأجل الطّلب ليتلقّى العلم على أبرز شيوخ عصره، كالشّيخ يحي بن يِدير، وعبد الرّحمن الثّعالبي، وغيرهما، وبعد التّحصيل انتقل إلى مرحلة الإفادة والمشاركة في التّعليم والفتوى، فبرّز بين الأقران،

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

ليشار إليه بالبنان في فنون كثيرة أتقنها، وكان ممّن تلمذ له الفقيه العاقب الأنصمني، ومحمد بن عبد الجبّار الفجيجي وغيرهم .[4]

كانت حياته عامرة بالمواقف الجليلة، ولم يكن ليقف مكتوف الأيدي وهو ينظر إلى الأوضاع الفاسدة، عاملا بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان جريئا، تحمله جراءته على منابذة الظّلم وأهله.

عاصر ملوك الزّيانيين الّذين عرف عصرهم فسادا سياسيا واجتماعيا، تمثّل في المروق عن الدّين، وصراع القبائل والأعراش على النّفوذ، والتّزلّف إلى الحكّام ،ولمّا لم يستطع تغيير ذلك الوضع الفاسد رحل إلى حيث يستطيع التّغيير، فاتّجه إلى بلاد توات، والسّودان الغربي [5].

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه رغم فساد ذلك الزّمان من تلك النّواحي الّتي ذكرنا، إلاّ أنّ الحياة العلمية والثّقافية كانت مزدهرة ، وأعلام ذلك العصر أشهر من نار على عَلَم، ولا أدلَّ على ذلك من تِلكم المراسلات الّتي راسل فيها المغيلي معاصريه، كما ناظر بعضهم ،وردُودُهم عليه تباينت بين مؤيِّد ومعارض ،والكُلّ له من الأدلّة والحجج ما يدلّ على سعة العلم ،وقوّة العارضة.

يبدو أنّ المغيلي قد اتّخذ من توات مقاما دائما له، وذلك منذ انتقاله إليها، فقد سافر بعد حادثة يهود توات مباشرة إلى فاس، ثم عاد إلى توات .[6]

هناك أنس من نفسه القدرة على تغيير الأوضاع، والصّدع بالحقّ، وقام بواجب الأمر والنّهي الشّرعيين، ومن هناك راسل العلماء في قضية يهود بعد تنامي نفوذهم في بلاد تمنطيط، حيث بنوا لأنفسهم بِيعة عظيمة، ممّا أثار ذكورته

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

العلمية ونخوته الدّينية، فحاربهم دون هوادة حينما وافقه في فتواه كثير من العلماء، مثل محمّد بن يوسف السّنوسي، ومحمّد بن عبد الجليل التّنَسي، كما أنصفه أبو عبد الله ابن غازي حين تحامل عليه أهل فاس، وقد كتب على صدر كتاب المغيلي :" هذا كتاب جليل، صدر عن نصّ جليل، وعلم بالصّواب كفيل، وصاحبه غريب في هذا الجيل، بيد أنه أطلق الكفر على التّضليل."[7]

ولم يلتفت المغيلي إلى قول من عارضه، كالفقيه عبد الله العصنوني قاضي توات آنذاك[8]، ولم يتردّد البتة في محاربة يهود، وهدم بِيَعهم .

ولمّا استتبّ له الأمر طفق يتجول في بلاد السّودان العربي، حيث زار أهر، وتكدة، وكنو، وكتش، فانتفع به النّاس، واجتمع ببعض سلاطينهم يحثّهم على اتّباع الشّرع، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. كما مرّ ببلاد التّكرور، وساسكي، وكاغو .[9]

ورحلاته لم تمنعه من التّأليف في شتّى فنون العلم، فمن تلك المؤلّفات "**مصباح الأرواح**"، و"**مغني النّبيل**" [شرح لمختصر خليل باختصار شديد]، و"**شرح بيوع الآجال**" من ابن الحاجب ،و"**مختصر تلخيص المفتاح**" [في البلاغة]، و"**مفتاح النّظر**" في علم الحديث، و"**شرح الجمل**" في المنطق[للخونجي]، و"**البدر المنير في علوم التّفسير**" [10]، وانفرد ابن مريم عن التّنبكتي بذكر تفسيره للفاتحة،[11] ونظم قصائد رائقة في مدح سيّد الخلق ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ منها قصيدة مطلعها:

بُشراك يا قلبُ هذا سيِّد الأمّم ... وهذه حضرة المختار في الحَرَم[12]

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

تلك المؤلفات بعضها مطبوع، وبعضها الآخر مخطوط أو مفقود.

ووقعت له مراسلة مع الإمام السّيوطي حول علم المنطق، حُكمِه وجدواه، فكان ذلك بينهما قريضا، أثبتهما التّنبكتي في منهاجه.

بين يدي المخطوط :

البلوغ إلى المخطوط قد لا يسهل الحصول عليه في غالب الأحيان، ولكنّ القاعدة قد شذّت مع هذا المخطوط، لأنّه هو الذي سعى إليّ، إذ ساقته الأقدار إليّ من نواكشوط، وانتقل من مكان إلى مكان عن طريق أحد الأصدقاء، بين أيد أمينة يدا بعد يد، وها أنا اليوم أسعى إلى إخراجه إلى النّور، بالتّعريف به أوّلا في هذا المقال ، ثمّ تحقيقه ـ إن شاء الله ـ في مستقبل الأيّام .

قراءتي للمخطوط أوجزها في أهمّ ما يتميّز به، من حيث الشّكل أوّلا، ثمّ المضمون وطريقة صاحبه في تفسير الفاتحة ثانيا .

1. **صورة المخطوط** : المخطوط كُتب بخطّ مغربيٍّ واضح، وأكاد أجزم بأنّ النّسخة قريبة العهد، أُخذت من أخرى ولكنْ دون ذكر النّاسخ ؛وعدد اللّوحات 17 لوحة، وعدد الأسطر 22 سطرا لكل لوحة، ومتوسط الكلمات في كل سطر لا يتجاوز ثماني كلمات؛ وهنا لا بدّ من الإلماع إلى قول ابن مريم الذي حدّد هذا التّفسير في صفحة واحدة[13]، و لا أدري أقَصد الحقيقة بكلامه؟أم هو مجاز أراد به صغر حجمه؟، أم روى ذلك عن غيره؟

وفيما يلي صورتان من المخطوط:

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الصّفحة الأخيرة من المخطوط

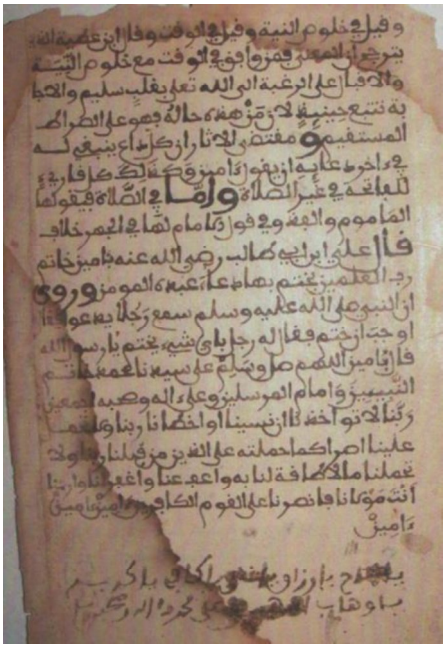

الصّفحة الأولى من المخطوط

2. نسبة المخطوط :

ففي أوّل المخطوط بعد البسملة والصّلاة على النّبي – **صلى الله عليه وسلم** –، كتب ما يلي:" قال الشّيخ الفقيه العالم العلاّمة شمس الدّين أبوعبد الله سيدي محمّد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني – **لطف الله** – به وبجميع أحبابه"[14]، يُستأنس بهذا أنّ الكلام للمغيلي، كما أنّنا نستأنس بمقدّمة الرّسالة الّتي لا تختلف عن مقدّمات بعض رسائله الأخرى.

جاء في المقدّمة قوله:" الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام الأتّمان على النّور المبين، محمّد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وسلّم

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

تسليما" [15] هذه العبارة نجدها في رسالته "**أسئلة الأسقيا**"، وكذلك في رسالته "**لبّ اللباب**"، كما نجد تشابها آخر بين "**تفسير الفاتحة**" و"**أسئلة الأسقيا**" في دعائه بعد فصل الخطاب : " أعاننا الله وإيّاك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه ..."[16]

أمّا الجامع الّذي يكاد يشمل أغلب رسائله أنّها إجابات عن أسئلة وجّهت إليه، وهو السِّر في اختصارها، وتوجيه الجواب إلى المقصود من السّؤال دون استطراد يخرج بالكلام عن مرامه .

الأصل في هذا التّفسير أنّه جواب عن سؤال ورد عليه من طالب علم ، يطلب إليه أن يكتب له تفسيرا موجزا لفاتحة الكتاب ،وفي ذلك يقول مخاطبا سائله :" فإنّك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من تفسير فاتحة الكتاب ،ذكرى لأولي الألباب." [17]

3. أسلوبه في الكتابة :

إنّ أسلوب الكتابة عند المغيلي واضح، وسهل لا غموض فيه، وكأن صاحبه اتخذه الوسيلة الأساس لأداء المعاني البعيدة بالألفاظ القريبة حتّى يحقّق المقصود من تعليم النّاس، وهل الأصل في الخطاب إلا الإفهام، وتقريب المعاني إلى الأذهان، وأسلوبه هذا الذي فسّر به الفاتحة هو السّمة الغالبة على سائر مؤلّفاته، ويمكن القول عنه إنّه السّهل الممتنع .

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وكانت عادة العلماء في تلك العصور الّتي عايشها المغيلي تجنح إلى الأسجاع، والتّكلف في صناعة الكلام وتنميقه، أمّا المغيلي فكان بعيدا عن مثل هذا السّلوك، ممّا يدلّ على تحرّره من قيود العصر التي كانت تكبّل أصحابها برعونات التّقليد في كلّ شيء .

وهو أيضا لا يتكلّف في إبلاغ المعلومات العلمية المتعلّقة بتفسير هذه السّورة القصيرة، كما يفعل كثير من المفسرين الّذين يذهبون مذاهب بعيدة في تفسيرها، حتّى يطول بهم المقام، فتهمل أثناء ذلك المقاصد الحقيقية للسّورة.

أمّا المغيلي فقد تحرّر من تلك التّكلفات بشكل كلّي،فيحيل القارئ على المعاني المتبادرة للأذهان في تفسير هذه السّورة، رعايةً لقدرة السّامع والقارئ، خصوصا إذا كان تفسيرها إجابة لسؤال سائل، ففي إيجازه ما يكفي لبلوغ المقصود، وفي ذلك مندوحة عن الخلافات الّتي يتنازعها العلماء عندما يفسّرون هذه السّورة أو غيرها من السّور.

ولا غرو أنّ هذه الطّريقة في التّفسير هي طريقة المصلحين، الّذين أخذوا على أنفسهم سلوك أسهل الطّرق وأقربها، لبلوغ أهدافهم، ولعلّ طريقته هذه هي عين ما كان عليه عبد الحميد ابن باديس في تفسيره، وقد عبّر عنها محمّد عبده أحسن تعبير حين قال :" وقد عرفتَ أنّ الإكثار في مقصد خاصّ من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

لهذا كان الّذي نعني به من التّفسير هو ما سبق ذكره، أي من فهم الكتاب من حيث هو دين، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر النّاس في هذه الحياة الدّنيا، وما يكونون به سعداء في الآخرة، ويتبعه بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، وتحقيق الإعراب على الوجه الّذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، أيّ عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التي عدّوها مُشكِلة، وربّما نشير أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النّحو الاصطلاحية، كما نفعل في بعض نكت البلاغة، أو قواعد الأصول، حتّى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارئ عن المعاني،صارفة له عن العبرة."[18]

4. مدرد التّفسير عند المغيلي:

المفسِّر لكتاب الله لابدّ أن يتوفّر على مؤهِّلات علمية عالية، تسمح له بخوض غمار التّفسير، وتلك معلومات سابقة أطلق عليها مصطلح الاستمداد كما هو عند الإمام الزرّكشي في برهانه، وقرنت بالألف والسّين تشبيها لاحتياج ذلك العلم لتلك المعلومات بطلب المدد، والمدد العون والغُواث، واستمداد علم التّفسير للمفسِّر من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار، ومن أخبار العرب وأصول الفقه، قيل وعلم الكلام وعلم القراءات؛ كما عدَّ بعضُ العلماء كالألوسي علمَ الكلام من جملة ما يتوقّف عليه التّفسير، والسّيوطي عدّ الفقه ضمن ذلك كلِّه، وزاد عليها.[19]

كان المغيلي بارعا في استمداد تلك العلوم لتفسير فاتحة الكتاب، دقيقا في استحضارها، يكتفي منها بالقدر الّذي يبلُغ به المقصود، وبيانه كالآتي:

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

✓ **علم العربية**: القرآن أنزل بلسان عربي مبين، ولا يمكن أن يفهم الفهم الصّحيح، ولا الوصولُ إلى اكتشاف نُكته البلاغية، ولا الغوصُ في بحور إعجازه، ولا فكُّ معاقد أسراره، إلاّ بامتلاك علم العربية بشتّى فنونه المعروفة، من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة؛ والمغيلي لم يكن غريبا عن هذه الفنون، بل درّسها وألّف في بعضها، كمختصره **لتلخيص** القزويني، وهذا اختصر بكتابه هذا **مفتاح العلوم** للسّكاكي في البلاغة.

لبيان معاني ألفاظ السّور يستشهد بالشّعر، وهو نفسه يقرّر ذلك في بداية تفسيره قائلا: (وعن ابن عبّاس– رضي الله عنهما – أن رجلا سأل النبي – صلّى الله عليه وسلّم – فقال: أيُّ علم القرآن أفضل فقال النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – عربيّته فالتمسوها في الشّعر "، **قلت**: عربيتُه طرُقُ البلاغة وتوابعُها، وقوله – صلّى الله عليه وسلّم – "فالتمسوها في الشّعر"، أيّ: اشعروا بها في الشّعر العربي، لأنّه ديوان العرب ...)[20].

ثمّ يقول: " وأوّل ما يفتقر إليه النّاظر بعد تصحيح النّظر معرفة معاني الكلمات "، وبعد أن تطرّق لكلمة " الحمد " ومعاني "ال"، كونها للعهد أم للاستغراق؟ أم هي للاختصاص ؟ كما يذهب إليه أبو العباس المرسي أم للحقيقة أم المجاز، وهنا يأتي بشاهد من كلام العرب مستدلا به على مجازيته:

ياأيّها المائح دَلْوي دونَك ... إنّي رأيت النّاس يحمدونك [21]

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وقد شرح كلمة " الدّين " بشكل مستفيض، ومن معانيها الجزاء، وشاهده قول الشّاعر:

واعلم يقيناً أنّ ملكَك زائلٌ ... واعْلم بأنَّ كما تَدين تُدان[22]

ويَطْرق الجانب البلاغي لبعض الجمل، ويمزج فيه النّحو بالبيان، والنّحوُ عنده يخدم المعنى ويكشف عنه، وليس النّحو مجردّ إظهار لبراعة الإعراب، فالإعراب أداة لخدمة المعنى المراد، كما هو معلوم في نظرية النّظم عند الجرجاني، الّذي عبّر عنه بأبيات:

إنّي أقول مقالا لستُ أُخفيه ... ولستُ أرهب خصما،إنْ بدا،فيه
ما من سبيل إلى إثبات معجزةٍ ... في النّظم ،إلاّ بما أصبحتُ أُبديه
فما لنظمِ كلامٍ أنت ناظمُه ... سوى حكمِ إعــرابٍ تُزَجّيــه

إلى أن يقول – رحمه الله –:

وقد علمنا بأنّ النّظمَ ليس سِوى ... حكمٍ من النَّحو نمضي في توخّيه[23]

ومثال هذه البراعة المغيلية قوله عند تفسير "**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**" : (وإيّاك ضمير نصب صالح للتّكلم والخطاب والغيبة والمذكّر والمؤنّث،إفرادا وتثنية وجمعا وإنّما يتبيّن المرادُ منها بالأحرف المتّصلة به للدّلالة عليها كالكاف هنا، ونعبد ونستعين جملتان فاعل كلٍّ منهما ضميرٌ للمتكلّم مع غيره مستترٌ وجوبا تقديره نحن، فينوي به الإمام وغيرُه نفسَه وسائر المؤمنين والمؤمنات، فمعنى نعبد نقيم الشّرع والأوامر مع تذلّل واستكانة، من قولهم طريق معبّد أي مذلّل، ومعنى نستعين نطلب العون منك في جميع أمورنا قبل العبادة ومعها، لأن الواو هنا حرف

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

عطف، فهي لمطلق الجمع من غير معيّة، ولا ترتيب ،وتقديمُ المفعول على فعله يدلّ على اختصاص الفعل به فيفيد هنا الإخلاص، وفي استعانتهم تبرٍّ من الحول والقوة فيما أخبروا به من عبادتهم، وكُرِّر المفعول به مقدَّما لاختلاف الفعلين، والاهتمام بتعيين الإخلاص في الوصفين..)[24].

وقد يعود بنا في بعض الأحيان إلى أصل اللّفظة، ليجلو المعنى الكامن فيها، كبيانه لأصل "الصّراط" حيث يقول: (لغة هو الطّريق الواضح، أصله بالسّين من سرط اللّقمة إذا ابتلعها، لأنّ الطّريق يبتلع سالكيه بالإبعاد في جوف البراري والبلاد ، ثمّ أبدل بالصّاد لمناسبتها في الإطباق.)[25]

يمكن القول بأنّ للمغيلي جولات، في ميادين النّحو، والصّرف، والبلاغة، ومعاني الألفاظ، خاض فيها خوض العارف المتمرّس، الّذي يرنو بفكره الثّاقب، وذوقه الحساس إلى تَلمُّس مواطن الإعجاز، واستنطاق مقاصد القرآن الّتي نجد في كلِّيَتها إصلاحَ الإنسان، والصعودَ به إلى الفاتحة لكل النِّعم،من هداية، وعبادة، واستعانة، وحمد .

✓ **علم الآثار**: المغيلي يقدّم الآثار في تفسير هذه السّورة على سواها من التفاسير، ورغم وجازة تفسيره إلاّ أنّه حوى أكثر من ثلاثة عشر أثرا،وإن لم يُعْن بتخريجها، وبيان مظانِّها، إلاّ أنّها في أغلبها صحيحة، سواء في جامع البخاري وإن لم يشر إليه، وفي صحيح مسلم – وقد أشار مرة واحدة، كما اعتمد على

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الطبري – سيأتي في نقل بعض الرّوايا تمثل الّتي فسّر بها "المغضوب عليهم " و"الضّالين" عن عديّ بن حاتم، وابن عباس، ومجاهد، والسَّدّي وابن زيد.[26]

وحينما أراد أن يستدلّ على عظمة قدر سورة الفاتحة، ومدى فضلها لم يجد أكمل من الأثر، وفيه يقول : (وكفى دليلا على عظيم فضلها قول النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – فيها " لم ينزل في التّوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها.")[27]

ذلكم هو نموذج عن بعض عنايته بالآثار في فهم كتاب الله، ولا غرو في ذلك، فعنايته بالآثار امتداد لمدرسة أهل السّنة، الّتي لا ترى محيدا عن تفسير القرآن بالأثر، لأنّ الّذي أنُزل إليه القرآن أولى بفهمه وتأويله مِصداقا لقوله عزّ وجل :" وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما أنزل إليهم ولعلّهم يتفكّرون"[28] .

وللأثر الأولوية على التّفسير بالرأي، الّذي لا محالة سيكون رافدا للمقصود النّبوي وخادما له، لا خارجا عنه مصطدما، إن كان وفق ضوابط اللّغة،ولم يصطدم بأصول الشّرع، وإلاّ فهو الرأي المذموم .

كما أن للمغيلي عناية بتفسير القرآن بالقرآن، وذلك ما قام به عندما فسّر "الدّين"، فأظهر معانيه المختلفة، فالدّين معناه **الملّة** لقوله تعالى:" إنّ الدّين عند الله الإسلام" ، ومعناه **الجزاء** لقوله تعالى:"اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت "، ومعناه **الإسلام** لقوله تعالى:" ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" .[29]

وكذلك ما قاله في تفسير "الصّراط المستقيم" : (ويبيّنه أولّ سورة البقرة، كأنهم لمّا قالوا اهدنا الصّراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

عليهم ولا الضّالين "، أجيبوا بقوله تعالى، أي الصّراط المستقيم :" ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين إلى آخر القرآن، فسورة الحمد أصل مجمل وباقي القرآن له مفسِّر)

فهذا من تفسير القرآن بالقرآن الّذي انعكست فيه صورة التّفسير بالرّأي، و فتحت أبوابَه مفاتيح التّدبر، الّتي تملَّكها الإمام المغيلى لصفاء الذّهن ونقاء السّريرة، وحسن الاتباع لسلوك من سلفه مِن صُلحاء هذه الأمّة وعلمائها، من أمثال ابن عطية الأندلسي وغيره .

وأنا إذ أدرج تفسير القرآن بالقرآن ضمن التّفسير بالأثر، فلكونه في مقابلة التّفسير بالرّأي، ولست إلاّ متّبعا لخُطى من سبقني كالعلاّمة عبد العظيم الزّرقاني، الّذي شرح التّفسير بالمأثور بقوله:" هو ما جاء في القرآن أوفي السّنة أو كلام الصّحابة بيانا لمراد الله تعالى من كتابه." [30]

✓ **علم القراءات** : للمغيلي عناية ظاهرة ببيان القراءات في عدة مواضع من سورة الفاتحة، ويعبّر عن ذلك بالقراءات السّبعية، ويحاول توجيهها، وبيان ما في بعضها من قوّة المعنى دون غيرها بعبارة دقيقة، تنمّ عن قدرة نادرة في تخيّر الكلمات والأساليب المناسبة للمقام، حتّى لا يقع في الحرج، وفي المحظورِ عند المقارنة بين القراءات السَّبْعية، ويصفها جميعا بالحُسن، ويحترز تمام الاحتراز لئلاّ يفاضل بينها، أو يرجّح إحداها على الأخرى لكونها متواترة، لا كما فعل الطّبري في "ملك "و"مالك " حين قال :"وأولى التّأويلين، وأصحّ القراءتين في التّلاوة

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

عندي التّأويل الأوّل، وهي قراءة من قرأ ملِك بمعنى المُلْك، لأنّ في الإقرار له بالانفراد بالـمُلك إيجابا لانفراده بالمِلْك، وزيادة فضل الـمَلِك على المالِك، إذ كان معلوما أن لا ملِك إلا وهو مالك، وقد يكون المالك لا ملِكا ."[31]

أما عبارة المغيلي فكانت أصلح بالمقام،وأكمل في ضبط زمام الكلام، وقد أحرز البلاغة من أقطارها ،وكأنّما اعتبر بما عوتب عليه ذلكم الإمام، فرضي لنفسه بالانزواء في ركن السّلام، وحينها قال – ونعم ما قال – :" والمَلِك على قراءة بعض السّبعة كنافع،والمالك على قراءة بعضهم كعاصم، مِن مَلَك بمعنى شدّ وضبط، ثمّ يختصّ كلُّ تصرّفٍ من اللّفظةِ بنوعٍ من المعنى، فالمَلِك في الشّيء شادُّه وضابطه بصفة المُلْك، والمالك للشّيء شادُّه وضابطه بصفة المِلْك، **فذِكْر الملِك أفخم وأدخل في المدح من ذكر المالك**، لأنّ كلّ مالك مالكٌ في الجملة، وليس كلّ مالك مَلِكا في الجملة، ولأنّ المَلِك لا يُتَعَقَّب تصرُّفُه في مُلكه فيَدُ الملِك فوق يدِ المالك بصفة المُلْك،ولا شيء من يد المالك فوق يد الملِك بصفة الملِك بهذا المعنى، إلاّ أنّ المالك أقعدُ بما في مِلكه من المَلِك بما في مُلكه،لأنّ الملِك إنما يملك بصفة مُلكِه التّدبير والأحكام فقط ،والمالك يملك بصفة مِلكه الانتفاع والتّدبير ، وكثيرا من الأحكام ؛ **فالقراءتان حسنتان** لأنّ الله تعالى ملك يوم الدّين ومالكه حقيقةً ."[32]

وهذا الكلام وإنْ كان قد أخذ معانيه الجُملية من تفسير ابن عطية[33]، إلاّ أنّ المغيلي كان أدقَّ عبارة، وأبلغ معنى، وأعمق مرمى.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

وحينما يأتي إلى كلمة "عليهم" يبيّن الأشهر في قراءتها، وهي بالكسر وسكون الميم كقراءة ورش وغيره ، وفي السَّبع غيرُها [34]، ويقصد قراءة ضمّ الهاء وسكون الميم عند حمزة الكسائي، وتفصيل ذلك في كتب القراءات خاصّة...

✓ **علم الكلام** : يراد بعلم الكلام، علم العقائد، أو علم التّوحيد، وقد عرّف العلاّمة الإيجي علم الكلام بقوله:"علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدّينية بإيراد الحجج ودفع الشّبه ."[35]

والمغيلي لم يكن بعيدا عن هذا الفنّ، وهو الذي ألّف في المنطق، وعلم الكلام يعتبر ضمن الصّناعات العقلية، وهو صنو علم المنطق – إن صحَّ التّعبير، وكما يقول الشّيخ محمّد عبده في سياق حديثه عن علم الكلام، وسرِّ تسميته بذلك:"...وإمّا لأنّه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدّين أشبه بالمنطق في تبيينه مسالك الحجة في علوم أهل النّظر؛وأبدل المنطق بالكلام للتّفرقة بينهما."[36]

فعلم الكلام وإن لم يكن من مدد علم التّفسير ،إلا أنّ حضوره ثابت في كثير من تفاسير المفسرين،والمغيلي لم يبتدع شيئا عن غير مثال،بل سَايَر سابقيه في هذا المسلك،كابن عطية الذي أثنى ابن تيمية على جلّ تفسيره، ولكنّه نَبَزَه لأجل ما أودعه من عقائد الأشعرية – وذلك من الابتداع المذموم حسبَه – وإن لم يتلفظ بهذه التسمية .

بل عبّر عنه مرّة بقوله:" ...ثمّ إنّه يدع ما نقله ابن جرير عن السّلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنّه قول المحقّقين، وإنّما يعني بهم طائفة من أهل الكلام

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الّذين قرّروا أصولهم بطرق من جنس ما قرَّرت به المعتزلة أصولهم ،وإن كانوا ـ يقصد الأشاعرة ـ أقرب إلى السّنة من المعتزلة .."[37]

وعبّر عنه في موضع آخر بقوله:" وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزّمخشري، وأصحّ نقلا وبحثا،**وأبعد عن البدع ،وإن اشتمل على بعضها**، بل هو خير منه بكثير .."[38]

فالمغيلي كان أشعريًّا، ولا بدّ أن يثبت العقائد المبثوثة في القرآن بالطّريقة الأشعرية، وقد بثّ في تفسيره للفاتحة بعضها،منه تأويله لصفة الرّحمة، وهي عنده "بمعنى الإنعام على المحتاج لأنّ الرّحمة في صفتنا تطلق بمعنى البداية وهي رقّة في القلب،وانعطاف في الطّبع،وبمعنى الغاية وهي الإنعام إرادة أو فعلا، وإنما تطلق في صفة المولى – جلّ وعلا – بمعنى الغاية فقط، فتكون من صفات الذّات بمعنى إرادة الإنعام،لأنّ صفات الذّات ثمانية يجمعها قول القائل

حياة،وعلم،قدرة،وإرادة ... كلام وإبصار وسمع ،مع البقا

وتكون من صفات الأفعال بمعنى الإنعام، لأنّ صفات الأفعال غيرها، كالتّخليق، والتّرزيق ، والإحياء، والإماتة. "[39]

وكذلك فَعَل مع كلمة "المغضوب عليهم"، قال :"اسم مفعول من الغضب، بمعنى البداية وهو توازن النّفس على المسيء بالمكروه، وبمعنى الغاية وهي الإهانة إرادةً أو فعلا، وإنما يطلق في المولى – جلّ وعلا – بمعنى الغاية فقط، كإظهاره على اليهود محقًا وعقوباتٍ، وذلةً، ونحو ذلك ممّا يدلّ على أنه أبعدهم من رحمته بعدا مؤكدا مبالغا فيه..."[40]

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

هذه هي عقيدته الّتي كان يدين بها، يؤوّل بها آيات الصّفات هروبا من التّشبيه، الّذي قد يوهمه ظاهر النّص، وهي طريقة الأشاعرة، راموا بها تنزيه الخالق عن صفات المخلوق.

✓ **الفقه** : اعتبره الإمام السّيوطي مددا لتفسير القرآن، وإن لم يكن كذلك، والمغيلي وإن عُدّ من الفقهاء المالكية البارزين، وهو صاحب شروح عدّة على مختصرالخليل، إلاّ أنّ شخصيته الفقهية لم تظهر بشكل جليٍّ كما ظهرت شخصيته الصُوفية –كما سنرى – ، ولم يكتف من الفقه إلّا بإشارة يسيرة أثبتها في آخر تفسيره، كمسألة التّأمين في الصّلاة الّتي اختصرها في قوله:" وأمّا في الصّلاة فيقولها المأموم والفذّ، وفي قول الإمام لها في الجهر خلاف"[41]

وتكلّم على عدد آي الفاتحة، وأثبت إجماع النّاس على أنّها سبع آيات، "ليس منها التّأمين، والاستعاذة إجماعا، ولا البسملة عند مالك وأبي حنيفة وجمهور الفقهاء "[42] .

وكذلك أشار في أوّل تفسير الفاتحة إلى حكمها في الصّلاة، فإنه لا تصحّ إلّا بها؛ فهذه هي الأحكام الفقهية الّتي جرى ذكرها في تفسيره،وهي ليست من مدده، بل هي إلماعات يوحي بها قلم المفسِّر إذا كان فقيها.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

5. النّزعة الصوفية لدى المغيلي:

الصّوفية كان لها وجود واسع في العصر الّذي عاش فيه المغيلي، وقد تأثّر بذلك المحيط، فأُشرب معاني الصّوفية، وصُبغ بأحوالها، وداخلته مصطلحاتها، وصار من دعاتها، ورأسا في الطّريقة القادرية، وليس غريبا أن ينعكس ذلك على تفسيره، فيجلو بكلامه صدأ الغفلة والتّراخي، ويمسح بحكمته رَيْن الذّنوب والمعاصي، فهو صوفي مصلح، لا رجل صومعة ينزوي بنفسه فيها، لا يبالي بأحوال النّاس أصَلَحوا أم فَسَدوا ؟ فهو خلَف لأمثال عبد القادر الجيلاني، طريقةً ودعوةً.

فالقرآن نورٌ يهدي به الله إلى سبل السّلام، وروحٌ يرفع النّاس إلى مقام الطّهر والصّفاء، وهُدًى يهدي به الله إلى مقامات الأولياء والأصفياء، إنّه قبس من قدسية ذوي النفوس العالية، ونفَس من أنفاس الأرواح السامية، جميعها نادت المغيلي أن هلمّ إلينا لتشفّ فتعرف، فأجاب النّداء، فكان تفسيره نورا وضياء، وها هو حاله ينطق ويدعو بمنطق أهل التّصوف ويشدو:" فسياق الآيات الثّلاث أفهمَ الاستدلالَ على الكمال والإفضال، واستنهض العبادَ للإخلاص على حسب الأحوال،حتّى كأنّه قيل لنا الكمالُ كلُّه لله، والفضلُ كلُّه من الله، وكيف لا وهو ربّ العالمين تربيةً، لأنّه الرّحمن الرّحيم، ومِلْكا لأنّه مَلِكُ يوم الدّين، فأخلِصوا العبادة له، والاستعانة به إجلالا لعظمته، وأداءً لحق ربوبيته لكونه – جلّ وعلا – ربّ العالمين، ومن لم يستطع فلكونه الرّحمن الرّحيم، ومن لم يستطع فلكونه ملك

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

يوم الدّين، فأقبَلَ السُّعداء كلُّهم قائلين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، متبرِّئين من الحول والقوّة في ذلك وغيره بقولهم اهدنا الصّراط المستقيم، معيِّنين المقصَد منه أكمل تعيين بقولهم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالين...." [43]

وكذلك عرَج عروجا شفّافا عند بيان سرِّ تسمية الفاتحة،بسورة الدّعاء، وسورة المسألة بعد أن ذكر حديث القِسمة الّذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه– وفي آخره قوله – صلّى الله عليه وسلّم – فيما حدّث به عن ربّه "**قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**"، هنا تتفجر ينابيع الحكمة لديه ليقول – رحمه الله– : " قلت ولهذا سمّيت سورة المسألة، وسورة الدّعاء، مع أنّها من أوّلها إلى آخرها على نظام الأدب في باب الطلب، ودعاؤها أفضل طلب، لأنّ الاستقامة هي المطلوب من العبد، وخيرُ ما يطلبه العبد من ربّه ما هو طالبُه منه "[44] .

6. مصادر التفسير لدى المغيلي:

فالمغيلي وإن لم يفصح عن المصادر الّتي استقى منها تفسيره، إلا أنّها متنوعة، فمنها ما هو من علم اللّغة ولكنه لم يشِرْ إليها، كما أنه اعتمد على تفسير الطَّبري وذكر اسمه مرة واحدة، واعتمد على ابن عطية الأندلسي، ولعلّه كان العمدة الأُولى في تفسيره حيث اقتبس معاني كثيرة من **محرّره**، ولم يذكره باسمه إلاّ مرّة واحدة، وفي بعض الإشارات البلاغية ما يدلّ على اطّلاعه على الكشّاف للزّمخشري، ولا غرابة فقد كان العلماء يدرسونه في تلمسان، كما درّس النّاس في الأندلس مع إغفال اعتزالياته، وكانت عناية النّاس كبيرة بهذين التّفسيرين

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

الأخيرين بعدَ أنْ ظهرا، كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في مقدّمته[45]؛ كما اعتمد على أبي العباس المرسي، وهو من المتصوّفة الكبار؛ وكان يكتفي في بعض الأحيان بأن يقول مثلا "المحققون من المتأخرين"، وقوله "واختلف تعبير المفسرين".

7. آراؤه وأقواله:

الإمام المغيلي حمل راية الإصلاح، وما رضي لنفسه بالقعود في مهاوي الفساد، بل انتقل من مكان إلى آخر يجدّد أمر الدّين، ويُحي النّفوس الخاملة، يدعوها للعودة إلى شريعته الصّافية، وأخلاقه العالية، لم يكن في ذلك مقلّدا لأحد، وإنّما يأخذ ما صحّ دليله، وقَبله عقلُه، وقد أحيا بشخصيته القوية ما اندرس من معالم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

وتفسيره هذا رغم اختصاره، إلّا أنّه يحمل من معاني التّجديد والإصلاح الشّيء الكثير، فهو يعتدّ بآرائه ويُثبتها إثبات من يثق بنفسه،حينما يردِّد قوله "**قلتُ**" في عدّة مناسبات، فيدلي دلوه في المسألة، ويردّ آراء غيره، ليرجّح ما عنده كما فعل عند تعريف "الحمد" اصطلاحا، فبعد أن ذكر تعريفه المشهور، قال:"وهو عندي غير جامع لخروج الثّناء على الله بصفات ذاته، لأنّه لا يقال فيها اختيارية ولا اضطرارية ، **فأقول** هو الثّناء بجميل أزلي أو اختياري تعظيما. " [46]

وشخصيته الإصلاحية تظهر جليّة، حينما يمتطي صهوة التّفسير، مغتنما سَيْرَه المتنامي مع معاني سورة الفاتحة، الّذي ينتقل خلالها من ساحة إلى ساحة، ومن جو إلى جوّ، فتلك الأجواء والساحات الفسيحة من هذه السورة، تشرح قلبه، وتطلق لسانَه بهتاف صادق لا يفوه به إلّا مصلحٌ مثله يحسّ بأمراض مَن

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

حوله، بعد أن جسّ قلوبهم، وخَبَر أخلاقهم، إنّ هتافه دواء ناجع لأمراضهم، يبتُر العلّة من جذورها، إنّه دواء الإخلاص، هتف فيهم وهو يسترعي أسماع قلوبهم:"**فأخلصوا العبادة له والاستعانة به،إجلالا لعظمته،وأداء لحق ربوبيته لكونه جلّ وعلا رب العالمين** ."[47]، إنها كلمة ناصعة وافية.

خاتمة :

يقول كثير من النّاس حينما يسمعون بتفسير جديد يخرج عليهم، ما الّذي سيضيفه إلى سابقيه، قد يكون كلامهم صحيحا، ولكنْ ليس على إطلاقه، ربما يكون عند اللاّحق ما ليس عند السّابق، وذلك ما نجده عند الإمام المغيلي، الّذي برع في تأليف هذا التّفسير المختصر، وكأنّه عِقد منظوم لا تنافر فيه، أو قطعة واحدة لا تكاد تجد فيها خرما، ينتقل بك بين أفنان من المعاني، قد يصعب على كثيرين الرّبط بينها، بأسلوب بديع ناصع، يبلغ بقارئه إلى المعنى الذي يريده دون عناء،وإن كان الكلام في أدقّ المسائل العلمية، لأنّ مراده الأوّل الإفهام لا الإبهام، ونحن إذ نؤكد على هذه الخَصيصة في تأليفه، نستحضر في أذهاننا تلك التآليف الّتي كان الإغراب والطلاسم غالبا على أصحابها في تلك العصور، أمّا المغيلي فقد شبّ عن الطّوق، ولم ير في تلك الأساليب ما يفيد.

بعد قراءتي المتأنيّة لهذا التّفسير المختصر، تمنّيت لو أنّ صاحبه أتمّ تفسيره على هذا المنوال، إذن لنافس به كبار المفسّرين، ولكنْ تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن، ولربّما خرج "**البدر المنير في علم التفسير**" يوما ما من أسره، لا أدري "لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا ".

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

رُغم ما أجده من قيمة علمية في هذا التّفسير، فلا أستطيع أنْ أتجاوز ما عبّر به الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني رحمه الله ـ هو بنفسه عن نفسه في بداية تفسيره قائلا :" فلا تتوهّم أيّها السامع لتفسير شيء من كتاب الله،أن ذلك مبلغ حِكَمه، إنما القرآن بحر لا ساحل له، كل يغترف منه بكأس فهمه على حسب علمه."[48]

الهوامش :

1. مجلة الأصالة (عدد 26 سنة 1975)،التّلمساني محمّد بن عبد الكريم التلمساني ،د. عبد القادر زبادية،ص205.
2. أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، د.يحي بوعزيز ،دار الغرب الإسلامي ،ط الأولى ـ 1995 م ،ص 143 .
3. النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر،دار الغرب، ط الثانية ، د ت ، عبد الحميد بكري،ص99 .
4. ينظر الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السّملالي،راجعه عبد الوهاب ابن منصور ،ط الثانية، المطبعة الملكية ـ الرباط، 1420 هـ ـ 1999 ،ج5 ص 108 .
5. ينظر أعلام الفكروالثقافة في الجزائر المحروسة ،ص 144 .
6. مجلة الأصالة (عدد 26 سنة 1975) ص 211.
7. دوحة الناشر ،محمد بن عسكر الحسني الشّفشاوي ، ت الدكتور محمد حجي،مطبعة الكرامة ـ الرباط،ط الثالثة، 1424هـ ـ 2003،ص 177 .
8. نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،أحمد بابا التنبكتي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس،ط الأولى ـ 1989 م،ص 576 .
9. المرجع نفسه،ص 331 .

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

10. المرجع نفسه،ص 332 .

11. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ،ابن مريم ،ديوان المطبوعات الجزائرية ،ص 255 .

12. هذه القصيدة ذكرها بطولها السملالي في الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج5ص 110 . 111 .

* طبع منها مؤخرا من مؤلفات المغيلي: عمل اليوم والليلة، وفيما يجب على الأمير، كلاهما بتحقيق محمد بن أحمد باغلي؛ ولب اللباب في رد الفكر إلى الصواب، بتحقيق أبو بكر بلقاسم ضيف .

13. ينظر البستان ،ص 255 .

14. اللوحة 1

15. اللوحة 1 .

16. اللوحة 1.

17. اللوحة 1.

18. المنار ،رشيد رضا ،19.18/1 .

19. التحرير والتنوير،الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية ، للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،1984 ،18/1 ،ينظر روح المعاني ،الألوسي دار إحياء التراث العربي . بيروت ،ط الرابعة 1405 هـ . 1985، 6/1 ،والإتقان في علوم القرآن،السيوطي، دار الفكر، ط الأولى ،1423 هـ . 2003 ،231/2 .

20. المخطوط ،اللوحة رقم 2 .

21. اللوحة رقم 3 .

22. اللوحة رقم 7 .

* تزجّيه أي تدفعه برفق.

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

23. دلائل الإعجاز،عبد القاهر الجرجاني،الشركة الوطنية للطباعة مصر ،ط الخامسة ، 1424هـ . 2004 م ،ت محمد محمود شاكر،ص 9 . 10 .

24. اللوحة 8 .

25. اللوحة 9 .

26. اللوحة 12 ؛ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن،محمد بن جرير الطبري ، دارالفكر. بيروت، 1405 هـ . 1984 م ،80.79/1 .

27. اللوحة 1 .

28. النحل الآية 44 .

29. اللوحة 8.7 . بتصرف .

30. مناهل العرفان في علوم القرآن ، الزرقاني ،دار الفكر،د ط . د ت ، 12/2 .

31. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ابن جرير الطبري،65/1 .

32. اللوحة 7.6 .

33. قارن بالمحرر الوجيز،لابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية،بيروت،ط الأولى، 1422هـ .2001 ، 1/ 69.

34. اللوحة 10 .

35. المواقف في علم الكلام،الإيجي،عالم الكتب ،بيروت ، د ط . د ت ، ص7 .

36. رسالة التوحيد ،محمد عبده ، دا رابن حزم ، ط الأولى ،1421 هـ .2001 ، ص 63.

37. مقدمة في أصول التفسير،ابن تيمية، منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، د ط . د ت ، ص37 .

38. المرجع نفسه، ص53 .

39. اللوحة 5 .

40. اللوحة 11 .

41. اللوحة 17

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image

42. اللوحة 15 .

43. اللوحة 14 . 15 .

44. اللوحة 16 .

45. المقدمة، ابن خلدون، ت عبد السلام الشدادي،CNRPA، 2006 ، الجزائر (وزارة الثقافة)، ص366.

46. اللوحة 4 .

47. اللوحة 14

48. اللوحة 2 .

Created using easyPDF Printer
Click here to purchase a license to remove this image